الزمان النفسي

للأستاذ زكريا ابراهيم

نسيجُ الحياة النفسيّة هو الزمان . والزمان — كما يقول برجسون — جِدّة مستمرّة ، وخلق جديد ، وإبداعٌ لصور لم تكن موجودة من قبل ، ولم يكن وجودها منتظراً . فليس الزمان الحقيقي عبارة عن لحظة تعقب لحظة أخرى ، وإنما هو امتداد الماضي باستمرار . وهذا الطابع الذي يتصف به الزمان ، يتمثل في الحياة النفسية بشكل واضح ، فإنّ ماضينا يتعقّبنا في كل لحظة من لحظات حياتنا . وليس من شك في أننا لا نفكر إلا بجزء صغير من ماضينا ، ولكننا إنما نرغب ونريد ونعمل بهذا الماضي كله . « فكل ما فكرنا فيه ، وما شعرنا به ، وما أردناه منذ طفولتنا المبكّرة ، لا يزال عالقاً بنفوسنا ، متجهاً نحو الحاضر الذي يوشك أن يتصل به ، ضاغطاً بقوة على باب الشعور الذي يريد أن يدعه خارجاً »[1] .

هذا هو جوهر الحياة النفسية ، كما تكشف لنا عنه النظرة العميقة إلى النفس الإنسانية . فكل فرد منا إذن هو عبارة عن تاريخ ؛ وهو عبارة عن تاريخ قائم بذاته مختلف عن غيره ؛ وثراء هذا التاريخ هو الذي يدل على ثراء حياة صاحبه الباطنة ، لا عدد السنين التي عاشها . وقد يبدو لنا أننا نسير مدفوعين بحكم الزمان الآلي — زمان الساعات — ولكننا في الحقيقة نتحرك وفقاً لإيقاع الحالات الباطنة ، والحركات الداخلية ، مما يقوم عليه الزمان النفسي .

فنحن لسنا عبارة عن ذرات من الغبار تطفو على سطح نهر ، بل نحن قطرات من الزيت تنتشر على سطح الماء ، سائرة بسرعتها الخاصة[2] .

ومعنى هذا أن جوهر حياتنا هو الزمان النفسي — لا الزمان الآلي — لأن شعورنا إنما يسجل حركته الخاصة ، أي السياق الخاص الذي تتوالى وفقاً له حالاته الباطنة ، (وإن كان هذا تحت تأثير المنبّه الخارجي الذي يتعرض له) . وبعبارة أخرى فإن الزمان الآلي غريب عنا ، في حين أن الزمان الباطن le temps intérieur هو جوهر نفوسنا . ومن المؤكد أن لحظات الزمان الآلي إنما تهوي إلى العدم ؛ أما لحظات الزمان النفسي فإنها لا تهوي إلى العدم مطلقاً ، بل تنطبع في الشعور ، وتنضاف إلى سجل الوعي الإنساني . فنحن نحمل معنا الطابع النفسي لكل أحداث حياتنا ، لأننا خلاصة للحالات النفسية التي مرت بنا .

وكل تجربة جديدة تمر بنا ، وكل فكرة تطوف بخاطرنا ، وكل فعل نقوم بتحقيقه ؛ بل كل حالة عضوية تعرض لنا ، لا بد أن يكون لها تأثير لا يمحى في حياتنا النفسية . ومعنى هذا أننا لا ننفصل مطلقاً عن ماضينا ، بل إن شخصيتنا تزداد ثراء وخصباً بكل تجربة جديدة تعرض لنا . وقد نشفى تماماً من مرض انتابنا ، أو حالة نفسية عرضت لنا ، ولكن لا بد أن يظل أثر هذا المرض أو هذه الحالة النفسية باقياً في طوايا شعورنا .

ومن جهة أخرى فإن من المستحيل على الشعور الإنساني أن يمر بحالة واحدة مرتين . قد تكون الظروف الخارجية واحدة ، ولكنها لا يمكن أن تؤثر في الفرد نفسه تأثيراً واحداً ، ما دامت تعرض له في لحظة جديدة من لحظات حياته . وعلى ذلك فإن التاريخ الإنساني (باعتبار أن كل إنسان هو عبارة عن تاريخ) لا يعيد نفسه مطلقاً . والشخصية الإنسانية تتكون في كل لحظة من التجارب المتجمعة ، فهي تتغير دائماً أبداً ، وهي إذ تتغير ، تحول دون تكرر حالة واحدة بعينها . ومن هذا كله نخلص إلى هذه النتيجة الهامة ، وهي أن الزمان النفسي غير قابل للاعادة ، أعني أننا لا نستطيع أن نحيا (إن صح هذا التعبير) حالة واحدة بعينها مرتين ، لأن هذا يقتضي أن نلغي وجود الذاكرة التي تحتفظ بالماضي[1] .

وإذا عمدنا الآن إلى مقارنة الزمان الآلي بالزمان النفسي فإننا نجد أن الزمان الآلي يسير وفقاً لإيقاع مطّرد ؛ أعني أنه يكون

(١) « التطور الابداعي » لهنري برجسون ، ص ٥

(٢) « الانسان ذلك المجهول ! » لألكس كاريل ، ص ٢٠١

(١) برجسون : « التطور الابداعي » ص ٦

من فترات متساوية لايتغير مساره خلالها . أما الزمان النفسى فهو على العكس من ذلك ، لأنه يختلف فى سرعته لدى الفرد الواحد ، تبعاً للفترات المختلفة فى حياته . فالسنة الواحدة — إبّان الطفولة — تحتوى على أحداث فسيولوجية وتغيرات نفسية ، أكثر مما تحتوى عليه السنة الواحدة إبان الشيخوخة — وعلى ذلك فإن السنة الواحدة أطول إبان الطفولة ، وأقصر إبان الشيخوخة ؛ لأن قيمتها بالنسبة إلى الطفل أكبر منها بالنسبة إلى والديه .

من هذا يتبين لنا أن الحياة الانسانية لا تُحْسَب بالأيام والسنوات ، بل بالقدر الذى « تحيا » به الأحداث والتجارب . ومعنى ذلك أنه من العبث أن تقاس أطوار الحياة الإنسانية بالزمان الآلى ، لأن هذا يقتضى أن يكون فى الحياة النفسية اطراد الزمان الآلى ؛ ولكن هذا الاطراد — فى الحقيقة — لا وجود له فى الحياة . فالحياة الإنسانية لا يمكن أن تقسم إلى أطوار زمنية تحسب بوحدات الزمان الآلى ، بل إنها يجب أن تقسم إلى أطوار نفسية تحسب بوحدات الزمان النفسى .

وإذا أخذنا اعتباراً للزمان النفسى ، فإننا لابد أن نهتم اهتماما كبيراً جداً بزمن الطفولة المبكرة ، لأن هذا الزمن هو بطبيعة الحال ، الزمن الثرى الحافل ... حقاً إن الزمان الآلى الذى تشغله هذه المرحلة من حياة الإنسان ، لا يبلغ مدى مرحلة الاكتمال أو مرحلة الرجولة ، ولكن الزمان النفسى الذى تنطوى عليه يفوق أية مرحلة أخرى . ولهذا فإن من الواجب أن تعطى مرحلة الطفولة المبكرة كل عناية ممكنة فى التربية . ولسنا فى حاجة إلى أن نؤكد ما لهذه المرحلة من قيمة سيكولوجية فى الحياة النفسية كلها ، فإن هذه حقيقة ثابتة لاشك فيها .

أما مرحلة النضج ومرحلة الشيخوخة فليس لهما إلا قيمة سيكولوجية ضئيلة بالقياس إلى مرحلة الطفولة ، لأنهما مرحلتان خاليتان تقريباً من التغيرات النفسية والتطورات العقلية . ومن أجل هذا ، فإن من الواجب أن يُملأ الفراغ الموجود فيهما بنشاط صناعى . وعلى ذلك فإنه إذا بلغ الفرد مرحلة الشيخوخة ، لم يكن عليه أن يقلع عن العمل ويركن إلى الدعة والخمول ، لأن الفراغ أخطر بالنسبة إلى الشيوخ منه بالنسبة إلى الشباب ... ؛ بل إن من الواجب على المجتمع أن يعهد إلى أولئك الذين وهت قواهم بعمل معتدل مناسب ، لا راحة تدنيهم من الموت ، أو دعة تذيقهم طعم الموت الحى (the living death) !

وإذا أنعمنا النظر فى هذه الفكرة — فكرة الزمان النفسى أمكننا أن نفهم كيف أننا منعزلون بعضنا عن بعض فى دوائر منفصلة ، أو عوالم متميزة . فمن المستحيل بالنسبة إلى الأبناء أن يفهموا آباءهم ، وبالأحرى أجدادهم . ولهذا فإننا إذا نظرنا إلى الأفراد فى حقبة واحدة أمكننا أن نقسمهم إلى أربعة أجيال متعاقبة بينها من التنافر أقصى ما يمكن ... وإن هذا الجد الطاعن فى السن ، وذلك الحفيد الصغير ، لهما كائنان مختلفان كل الاختلاف ، وكل منهما غريب عن الآخر تمام الغرابة ... فإذا أريد أن يكون تأثير الجيل الواحد فى الجيل الذى يليه تأثيراً أكبر ، كان من الواجب أن تقل المسافة الزمنية بينهما . ولهذا فإن من الأفضل أن تصبح المرأة أماً فى دور شبابها الأول ، حتى لا يكون المدى الذى يفصل بينها وبين أولادها هو من السعة بحيث لا يمكن الحب نفسه أن يسد فراغه .

زكريا ابراهيم

صديقى القارئ

الكتب الآتية

ضرورية لثقافة فكرك ولسانك

ثمنها

وجه الرسالة : للأستاذ أحمد حسن الزيات ٤٠ قرش

آلام فرتر : ٤٠

رفائيل : ٤٠

اطلبها من إدارة « الرسالة »

ومن المكاتب الشهيرة